نظرية لغوية جديدة
من إعجاز القرآن الكريم

بقلم

م.د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية (سابقا)

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فرغم العمل، كما يبدو من العنوان، نظرية لغوية جديدة في إعجاز القرآن الكريم، عبارة عن تبيين طبيعة هذه النظرية القرآنية اللغوية الجديدة، وملء بياناتها التي اكتشفني لها بفضل الله تعالى، حيث إن بفضل الله تعالى لها قد اكتشفتها، بعد مضي ما يزيد على ألف وأربعمائة عام من ابتداء نزول القرآن الكريم، على محمد صلى الله عليه وسلم.

وأبادر إلى تعريف هذه النظرية. إنها تتعلق بجملتي: "جاء" و"أتى" ومشتقاتهما، واستعمال القرآن الكريم للجملتين ومشتقاتهما استعمالاً صارماً. إن جملة "جاء" وتستعمل في القرآن الكريم إلا دليلاً على القرب، الزماني والمكاني، والنفسي. وإن جملة "أتى" لا تستعمل في القرآن الكريم إلا دليلاً على البعد الزماني، والمكاني، والنفسي. وهذه النظرية القرآنية اللغوية، أمكن توظيفها في خدمة زعمه ما يزيد على تسبيح القرآن الكريم أو تسعة.

وإن هذه النظرية القرآنية اللغوية، تكاد تكون النظرية في مجال إعجاز القرآن الكريم، التي يمكن إحصاء آياتها إحصاءً دقيقاً، أو شبه دقيق.

وأبادر إلى ضرب مثال واحد على هذه النظرية. جاء في الآية الكريمة التاسعة والعشرين بعد المئة في سورة الأعراف على لسان قوم موسى عليه السلام قوله تعالى: ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾. قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ فقد آذى فرعون وملؤه بني إسرائيل أذى بليغا، من قبل أن يأتيهم موسى عليه السلام، ومن بعد ما جاءهم. إن الأذى موصول.

وبالقاء نظرة على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم يتبين أن عدد الصفحات التي جاءت فيها جملتا: "أتى" و"جاء" ومشتقاتهما زهاء تسع صفحات. وهذا خير كبير. كما يتبين أن مادة: "أتى" (٢٦٣) مائتين وثلاثا وستين مرة، وأن مادة: "جاء" جاءت (٢٧٨) مائتين وثمانيا وسبعين مرة، وبذلك يكون مجموع المرات ٥٤١ خمسمائة وإحدى وأربعين مرة. ولا يخفى أن عدد آيات القرآن الكريم ٦٢٣٦ ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية كريمة. ولكن الأمر بشأن هذه النظرية اللغوية الجديدة في إعجاز القرآن الكريم يتجاوز هذه الإحصائية، إلى معرفة حقيقة غائبة في الأهمية، ترفع من حصيلة الآيات الكريمات التي تجد مرا هذه النظرية، وهي أننا حينما وظفنا هذه النظرية في هذه الدراسة فإنما وضعنا اثنين من القرآن الكريم، الموضع الأول في سورة يوسف دليلا على أن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا عشرة محضا، تبين لنا أنا من

أجل توظيف جملة: "جاء" في الآية الكريمة التاسعة عشرة من سورة يوسف الكريمة، فإننا كان يلزمنا أن ندرس ثلاث عشرة آية كريمة، ومنها الآية الكريمة موضع الشاهد. والموضع الآخر من سورة القصص من أجل معرفة القائل في الآية الكريمة التاسعة عشرة: ﴿قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس﴾ ومن أجل ترجيح رأي إحدى المدرستين في التفسير اللتين تقول منهما رأيا مستقلا في تعيين القائل. إننا من أجل توظيف هذه النظرية اللغوية الجديدة كان علينا دراسة ثمانية آيات كريمات، ومنها الآية الكريمة موضع الشاهد، خمس آيات كريمات قبل آية الشاهد، وآيتان كريمتان بعد آية الشاهد.

وإذا اتضح أن آيات جملتي: "جاء" و: "أتى" يتعارض فهم بعضها إلى دراسة آيات أخرى، فهذا معناه أن هذه النظرية اللغوية الجديدة تخدم أكثر من سبع القرآن الكريم أو سبعين.

وهذه الدراسة بعنوان: نظرية لغوية حديدة في إعجاز القرآن الكريم، ثمرة لدراسات متفرقة في هذا المعنى، في سلسلة تأملات في كتاب الله، والتفسير البسيط للقرآن الكريم خلال مدة من الزمان تزيد على ربع قرن. وبذلك تكون هذه الدراسة بمثابة الزبدة للدراسات السابقة المتفرقة.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يتفضل بقبول هذا العمل، ووضع القبول له، والمثوبة عليه.

سائلاً الله تعالى أن يأخذ بأيدينا جميعًا إلى أقوم سبيل، إنه أعظم مسئول، وأكرم مأمول.

﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين ﴾ وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى عفو ربه

د. حسن محمد باجودة

أستاذ القراءات القرآنية ليبانية (سابقًا)

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

صبيحة يوم الأربعاء

١١/٥/١٤٢٦هـ

الموافق ١٣/١١/٢٠٠٥م

التمهيد :

بإذن الله تعالى سنتحدث في هذا التمهيد بإيجاز في خمسة موضوعات، وذلك وفق العناوين التالية:

١- إمكانية إحصاء الآيات الكريمات من القرآن الكريم التي تغطيها نظرية «جاء» و «أتى»

٢- نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني أعظم نظريات إعجاز القرآن الكريم.

٣- إرهاصات انتشاف نظرية «جاء و: أتى»

٤- المعنى الأخير المستقر لمعنى الجملتين: «جاء» و «أتى»

٥- نظرية «جاء و: أتى»

١- إحصاء الآيات الكريمات النظيرة: جاء، و: "أتى"

لقد تبيّن من مراجعة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم أن جملتي: "جاء" و: "أتى" تشتغلان في هذا المعجم زهاء تسع صفحات. كما تبيّن أن جملة: "أتى" ومتعلّقاتها أتت في القرآن الكريم (٣٦٤) مئتين وأربعاً وستين مرة. كما تبيّن أن جملة: "جاء" ومتعلّقاتها جاءت في القرآن الكريم (٢٧٨) مئتين وثمانياً وسبعين مرة. وبذلك يكون مجموع المرات بشأن الجملتين معاً (٥) خمسمئة واحدة وأربعين مرة. وهذا بفضل الله تعالى خير كبير. يضاف إلى ذلك الخير خير آخر هو أنا حينما وظّفنا بعض الجمل بشأن تأكيد القول: إن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا أشراراً محضاً، وبشأن السعي إلى ترجيح أحد رأيي مدرستي التفسير بشأن القائل في سورة القصص (١) "قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس" قد اضطررنا لأن نتعامل بشأن الموضعين في السورتين الكريمتين يوسف والقصص مع (٢١) واحد وعشرين آية كريمة، حتى تمكّنا بفضل الله تعالى أخيراً من ترجيح رأي إحدى المدرستين المتقدّمتين في التفسير. وبهذا يتبيّن الله والكبير الذي تقدمه هذه النظرية اللغوية الجديدة خاصة لإعجاز القرآن الكريم.

---

(١) سورة القصص ١٩

وبما أنّ هذه النظرية المتعلقة بجملتي: «جاء» و: «آتى» تكاد تكون النظرية الوحيدة التي يمكننا إحصاء إيّاياتها الكريمات ميدان هذه النظرية، فقد أغرتنا هذه العملية الإحصائية لأن نتحدث عن أعظم نظرية من إعجاز القرآن الكريم، وهي نظرية النظم للإمام عبد القاهر الجرجاني!

٢- نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني:

لقد اكتشف الإمام عبد القاهر الجرجاني نظريته هذه أثناء تأليف كتابه الثاني من مجال البلاغة العربية، وهو كتاب: دلائل الإعجاز.

وتعريف نظرية النظم باختصار هو ترتيب ألفاظ معاني الكلام، نثرا وشعرا، وفق ترتيب هذه الألفاظ في النفس. لتنقل تلك المعاني، وبقدر مهارة ترتيب الألفاظ لنقل معاني النفس يتحقق مستوى بلاغة الكلام، حتى يصل إلى مرتبة إعجاز القرآن الكريم.

ومميزة نظرية النظم هذه هي مرونتها، فأنت تستطيع أن تطبقها على كل كلام. ومع أن الإمام عبد القاهر قد اكتشف هذه النظرية العظيمة في كتاب دلائل الإعجاز، الذي وضع فيه أسس علم المعاني من البلاغة العربية، إلا أن هذه النظرية يمكن تطبيقها على علمي البلاغة الأخريين، علم البيان وعلم البديع. علم البيان الذي وضع الإمام عبد القاهر أسسه في كتاب أسرار البلاغة، الذي ألفه الإمام عبد القاهر قبل كتاب دلائل الإعجاز، علما بأن الإمام عبد القاهر لم يخصص علم البديع بكتاب، وإنما درس هذا العلم الثالث من علوم البلاغة العربية في هذين الكتابين العظيمين.

وضابط علم البديع عند الإمام عبد القاهر،

إيصال المعنى أو تلقيه، عن طريق المحسنات البديعية، اللفظية والمعنوية.

ونحن بدورنا قد قمنا بتعريف علمي البيان والمعاني بتعريفين قصيرين مختصرين.

لقد عرفنا علم البيان بأنه التعبير عن المعنى بطريقة غير مباشرة. ومعنى أن هذا العلم التشبيه، والتشبيه التمثيلي، والمجاز، وهنا الاستعارة، والكناية.

كما عرفنا علم المعاني بأنه التعبير عن المعنى بطريق مباشر.

ونود أن نشير إلى أن الإمام عبد القاهر قد استدرك الكناية في كتابه دلائل الإعجاز الذي وضع فيه أسس علم المعاني.

ونحن من واقع دراستنا هذه، قمنا بتبيين طبيعة نظرية النظم القرآنية اللغوية الجديدة، وأشرنا إلى إرهاصات الكشف عنها، وعملية الكشف عنها، وضرب المثل على استعمالاتها في القرآن الكريم.

كما قمنا بتوظيفها في محاولة تبيين أبعاد وتعيين معنى، وترجيح رأي مدرسة في مجال التفسير على رأي مدرسة أخرى(1).

---

(1) قمنا بعملية إحصاء المواضع في القرآن الكريم التي اجتمعت فيها جملتا: «جاء» و«أتى»، وذلك في دراسة بعنوان نظرة أخرى في نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني. نشرت في الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، عام 1421هـ/2000م ص 9-66. وقد سقط منا سهوا توضيح واحد وذلك في الآيتين الكريمتين رقم 8 و9 من سورة الملك الكريمة.

٣- إرهاصات اكتشاف نظرية "جاء" و"أتى":

لقد سبقت إرهاصات عملية اكتشاف نظرية "جاء" و"أتى" واستعمالاتهما في القرآن الكريم. فقد أكرم الله تعالى باكتشاف هذه النظرية القرآنية اللغوية، في أثناء دراسة المشروع القرآني بعنوان: "تأملات في كتاب الله تعالى". فهذا المشروع استغرق أكثر من ثلاثة وعشرين عامًا، ابتداءً من مطلع عام ١٣٩٢هـ وقد تمت دراسة تسع عشرة سورة كريمة شملت أكثر من أربعة عشر جزءًا من القرآن الكريم.

وبعد أن تمت دراسة أربع سور، تحت العناوين التالية: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام، ثم منعم عليهم ومغضوب، وهذا هو عنوان الدراسة المتأملة لسورة مريم في الطبعة الأولى، ثم أصبح العنوان بعد ذلك: تأملات في سورة مريم، ثم تأملات في سورة يس قلب القرآن، ثم تأملات في سورة الإسراء. وبعد أن تمت دراسة السور الأربع، شاء الله تعالى أن أنتدب للتدريس في أستراليا. في قسم الدراسات السامية في جامعة سدني. وتم التدريس في العام الدراسي ١٣٩٥/١٣٩٦هـ.

وفي أثناء التدريس أكرمني الله تعالى بدراسة سورة الفرقان المكية الكريمة، وتاريخ كتابة مقدمة الدراسة المتأملة لسورة الفرقان هو يوم الجمعة ١٣/٦/١٣٩٦هـ الموافق ١١/٥/١٩٧٦م

وفي أثناء الدراسة المتأملة للسورة الكريمة، انتهينا

إلى تأمل الآيتين الكريمتين برقم ٣٢ و ٣٣. قال تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة. كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾

وقد تمت دراسة الآيتين في الكتاب تحت عنوان: الرد على القائلين بأن ينزل القرآن الكريم جملة واحدة. وذلك من الصفحات ٢٢١ - ٢٢٦

وهذا العنوان، وضعته امتدادا لما تحلل من سورة الفرقان المكية الكريمة وحدها، بشأن هذا النوع من مظاهر إعجاز القرآن الكريم، وذلك بعرض القرآن الكريم اعتراضات الكافرين على القرآن الكريم، والرسول العظيم، ووضع طريقة عجيبة، وذلك بوضع كل اعتراض للكافرين في أسلوب القرآن الكريم المعجز، والكافرون لا يستطيعون عرض اعتراضاتهم بهذه الكيفية، وهذا من مظاهر إنصاف القرآن الكريم للخصوم. وبعد سرد هذه الاعتراضات في أسلوب القرآن الكريم المعجز، يكر القرآن الكريم عليها بالرد في أسلوبه المعجز على كل اعتراض، وبدحض كل تهمة. وهذا السرد لتهم الخصوم والرد عليها مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم يوجد في سورة الفرقان وحدها (١) والقرآن الكريم يتردد في طريقة خاصة جديدة فريدة، وذلك بترتيب الورود وفق طبيعة الاعتراضات

---

(١) انظر تأملات في سورة الفرقان تحت عنوان: اعتراضات ورود ٦٥ - ٢٧

بحيث تعرضت الاعتراضات وفق حكمة جديدة، وهي الرد ابتداءً على الاعتراضات السخيفة لتبدو تفاهتها، ثم التحول إلى الاعتراضات التي لها حظ ضئيل من المنطق (١).

وقد تمت بفضل الله تعالى دراسة الآيتين الكريمتين اللتين يتألف منهما الاعتراض، وهذه هي أولى الآيتين الكريمتين، وهي برقم (٣٢) قال تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة. كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾

المعنى، والله تعالى أعلم: وقال الذين كفروا هلا نزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) القرآن (الكريم) جملة واحدة، كما أنزلت التوراة على موسى عليه السلام، والزبور على داود عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام. كذلك نزلنا عليك القرآن الكريم مفرقا، بحسب الوقائع، ومقتضيات الأحوال، خلال ثلاثة وعشرين عاما، لنثبت بنزول القرآن الكريم في هذه الطريقة فؤادك أيها الرسول الكريم، وقويته قلبك أيها النبي العظيم، وكذلك رتلناه ترتيلا، ونزلناه مفرقا تنزيلا، لتتمكن من ترتيله ترتيلا، وتجويده تجويدا، والترنم به ترنما، وفهمه فهما صحيحا.

---

(١) انظر - مثلا - التفسير البسيط للقرآن الكريم ١٨/٩/٣٠

و تطبيق هذه القاعدة تطبيقاً صحيحاً، وتحويل معناه إلى عمل تحويلاً سليماً.

وهذه هي آخر الآيتين الكريمتين، وهي برقم (٣٤). قال تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾ ويلاحظ أن هذه الآية الكريمة بقيد وجملتي جاء و: «أتى» معاً وهذا المعنى واحد مما يزيد على ثلاثين موضعاً في القرآن الكريم، جاءت فيها الجملتان معاً. والجملتان مثالان واضحان على هذه النظرية القرآنية اللغوية الجديدة.

ومعنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم، ولا يأتونك يا محمد، بمثل قد أتعبوا أنفسهم في البحث عنه ظناً أن كاذبهم، وبصفة مستمرة أجهدوا أنفسهم في الوصول إليها ظناً بأنفسهم، بأن قالوا مثلاً. مثل محمد مثل الشاعر، والكاهن، والساحر، والمجنون، والكاذب هو كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً (١) ولا يأتونك يا محمد بمثل من هذه الأكاذيب، ولا بصفة من هذه التفاهات، إلا جئناك يا محمد بالحق الصريح، والوصف المليح، والتفسير الصحيح، لحقيقتك أنك الرسول الكريم والنبي العظيم.

---

(١) سورة الكهف ٥

ولقد جاءت هذه الإرصادات النظرية في كتاب "تأملات في سورة الفرقان"، وذلك في القول: (1) "ولعلنا لاحظنا جمال أداء الجملتين المتقاربتين المعنى كلاً من المعنيين وفق ترتيبهما الزمني. فأتى تنطبق على الزمن السابق، وجاء تنطبق على الزمن اللاحق. إن الحق هو الذي يستغرق القرآن الكريم إلى أحقافه، ويكون ذلك عن طريق إعطاء التعبير الصحيح، والتفسير الحسن لكل مسألة يعرضها القرآن الكريم لها، بحيث ينتزع كل منصف إلى أن ما تضمنه القرآن الكريم هو الحق، لأنه كلام رب العالمين، عالم الغيب في السماوات والأرض. جاء في سورة الإسراء (2) قوله تعالى: ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾

(1) تأملات في سورة الفرقان ٢٦.
(2) سورة الإسراء ١٠٥ وتمامها الآية الكريمة

٤ - المعنى الأخير المستقر لمعنى الجملتين

بفضل الله تعالى لم يطل العوق للوصول للمعنى الأخير.

إن هذا الفهم الأخير للنظرية نهيئا إليه بفضل الله تعالى فأثناء تأملنا عام ١٣٩٧ هـ للآية الكريمة التاسعة من سورة الحاقة المكية الكريمة قال تعالى: ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة﴾

إنا من أثناء دراستنا المتأملة لسورة الحاقة المكية الكريمة، ومن أثناء تأملنا للآية الكريمة، فتح الله تعالى علينا بالمعنى الدقيق لكل من الجملتين، والفرق الدقيق بين المعنيين، فقد انتهينا بفضل الله تعالى إلى أن جملة جاء لا تستعمل في القرآن الكريم إلا دليلا على القرب الزماني، والمكاني، والنفسي. وإلى أن جملة أتى لا تستعمل في القرآن الكريم إلا دليلا على البعد الزماني، والمكاني، والنفسي. والآية الكريمة تتحدث عن المجيء الفعلي للفعلة الخاطئة عن عمد وسبق إصرار من كل من فرعون وفرعون قوم لوط عليه السلام، الذين قلب جبريل عليه السلام بأمر من الله تعالى قراهم رأسا على عقب (١)

والدراسة المتأملة لسورة الحاقة كتبت مقدمتها في مكة المكرمة يوم الأحد العشرين من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٩٧ هـ الموافق ٨ مايو ١٩٧٧ م

---

(١) تأملات في سورة الحاقة ٦١

٥- نظرية: "جاء" و"أتى":

لقد بيّنا معنى كلّ من: "جاء" و"أتى" في كتاب: تأمّلات في سورة الحاقّة، وذلك في أكثر من موضع. لقد بيّنا هذا المعنى في المقدّمة، فقد جاء في المقدّمة (١) القول: «وإنّ جملة: "جاء" من الآية الكريمة، التي ترتبط بها جملة: "أتى" صنّفوها، قد حملتنا على أن نقدّم دراسة متأمّلة، وانتهينا إلى نتيجة مهمّة هي أنّ جملة: "جاء" متعلّقاً بها، لا تستعمل في القرآن الكريم إلّا دليلاً على القرب الزمانيّ، والمكانيّ، والنفسيّ، وأنّ جملة: "أتى" هي متعلّقاً بها، لا تستعمل إلّا دليلاً على البعد الزمانيّ، والمكانيّ، والنفسيّ. وقد ضربنا على ذلك الكثير من النماذج القرآنيّة».

وقد تمّ في القسم الثالث من السورة الكريمة، والذي يتألّف من آيتين كريمتين، فقد تمّ دراسة الآيتين الكريمتين دراسة متأمّلة، كما تمّ تبيين أبعاد نظريّة جاء وأتى، مع ضرب النماذج الكثيرة من القرآن الكريم (٢).

---

(١) تأمّلات في سورة الحاقّة ٥

(٢) تأمّلات في سورة الحاقّة ٤٧-٦٢

نماذج لاستعمالات: «جاء» و «أتى» في القرآن الكريم

إن مجيء الجملتين منفردتين أو مجتمعتين في آية كريمة واحدة أو مناسبة واحدة، وجه الدراسة، فتم الحديث تارة عن الجملة الواحدة، وتم الحديث تارة أخرى عن الجملتين معًا. وهذا ما سوف نفعله هنا بإذن الله تعالى؛ وإليك الأمثلة من القرآن الكريم على استعمال الجملتين معًا، أو استعمال الجملة الواحدة، مع تفسير موجز للآية الكريمة أو الآيات الكريمات.

(1) دلالة الجملتين على الزمان :

جاء في سورة الأعراف (1) قوله تعالى : ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا. قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾

المعنى ، والله تعالى أعلم ، قال موسى عليه السلام لقومه بني إسرائيل ، الذين سامهم فرعون وقومه أشد أنواع سوء العذاب : استعينوا بالله تعالى على ما أصابكم من الأذى ، وجاءكم من البلاء ، واصبروا على ما نزل بكم من فرعون الطاغية ، وقومه البغاة من ظلم وتقتيل وتعذيب . إن الأرض كلها ، ومنها مصر ، لله تعالى ، يورثها الله تعالى من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ، والنصر أخيرا للصابرين.

قال قوم موسى عليه الصلاة والسلام لرسول الله تعالى إليهم ، موسى عليه الصلاة والسلام : إنا قد أوذينا من قبل أن تأتينا يا موسى ، ومن بعد ما جئتنا ، فأذى فرعون ومله لنا موصول.

قال موسى عليه الصلاة والسلام لقومه بني

---

(1) سورة الأعراف ١٢٨ و ١٢٩

إسرائيل: عسى ربكم يا قومي، وعسى من الله تعالى موجبة، فالله تعالى على كل شيء قدير، عسى ربكم أن يهلك عدوكم، فرعون وملأه، ويستخلفكم في الأرض، ويجعلكم الحكام، فينظر جل وعلا كيف تعملون وقد أهلك عدوكم ومكن لكم في أرض مصر.

وجاء في سورة مريم، على لسان إبراهيم عليه السلام، مخاطباً أباه آزر المشرك، وداعياً له إلى الإسلام، من بين موعظة طويلة (١) قوله تعالى (٢): يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً يا له المعنى، والله تعالى أعلم، يا أبت آزر، إني قد جاءني من النبأ الأبين المتأخر زمناً، ما لم يأتك يا أبت، وأنت المتقدم زمناً، فاتبعني يا أبت، واهجر الأصنام، واترك عبادة الأوثان، واعبد الله تعالى، وأفرده جل وعلا بالعبادة. فاتبعني يا أبت أهدك بإذن الله تعالى صراطاً سوياً، وطريقاً مستقيماً.

---

(١) الآيات ٤١ - ٤٥
(٢) الآية ٤٣

(٢) دلالة جملة: جاء، على القرب المكاني

يمكن أن نضرب المثال على دلالة: «جاء» على القرب المكاني بالآية الكريمة من سورة النساء (١) والآية الكريمة مرتبطة بالآية الكريمة التالية. قال تعالى (٢) ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا. يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا﴾

ومعنى الآية الكريمة الأولى، والله تعالى أعلم، فكيف يكون حال الكافرين والمكذبين يوم القيامة، إذا جئنا من كل أمة بشهيد، هو رسول الله تعالى إليها، يشهد بأنه قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وكان لقومه الناصح الأمين، ولكنت القوم انقسموا فريقين اثنين، قوم مؤمنين وكافرين، مصدقين ومكذبين، إنه حال أصعب حال الكافرين والمكذبين، وكيف إذا جئنا بك، أيها الرسول الكريم والنبي العظيم، شهيدا على هؤلاء الذين أنت بين ظهرانيهم اليوم، وفيهم المؤمنون والمصدقون، وفيهم الكافرون والمكذبون، إنه حال المؤمنين والمصدقين طيب، وإنه حال الكافرين والمكذبين سيئ.

من ذلك اليوم المجموع له الناس المشهود، يود الذين كفروا بالله تعالى، وعصوا رسوله صلى

---

(١) سورة النساء ٤١

(٢) سورة النساء ٤٢

الله عليه وسلم. لو أن الأرض انشقت وابتلعتهم وسقوي فوقهم التراب، وهم لا يستطيعون أن يكتموا الله تعالى حديثاً، أو أن يخفوا خبراً، لأنهم لو أرادوا أن يكذبوا يختم على أفواههم، وفي هذه الحال تتكلم أيديهم، وتشهد أرجلهم، وتنطق جلودهم بما كانوا يأتون من سيئ الأقوال والأفعال. إن الله تعالى أنذرنا أنطق كل حي وشيء، هو أنذرنا أنطق كل هذه الأعضاء، فلا نقول إلا الحق، ولا نتكلم إلا بالصدق.

ويلاحظ من الموضعين دلالة جملة: "جئنا" على القرب المكاني، والمجيء الفعلي. مجيء المرسلين السابقين، ومجيء محمد بن عبد الله، خاتم النبيين، وأشرف المرسلين، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين.

(٣) دلالة جملة: «جاء» على القرب النفسي:

جاء في سورة الصافات (١) قوله تعالى:

﴿وإن من شيعته لإبراهيم، إذ جاء ربه بقلب سليم﴾

المعنى، والله تعالى أعلم، وإن مِمَّن شيعة نوح عليه السلام، وعلى دينه وملته (٢) ومنهاجه وسنته (٣) لإبراهيم عليه السلام، ابن الأنبياء، فكل الأنبياء بعده من ذريته عليه الصلاة والسلام، وذلك عن طريق ابنيه إسحاق وإسماعيل، عليهما الصلاة والسلام، فكل أنبياء بني إسرائيل من ذرية إسحاق عليهم جميعًا صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين، وإن محمدًا صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيين، وأشرف المرسلين وحده من ذرية إسماعيل عليه الصلاة والسلام (٤)

إن إبراهيم عليه السلام من شيعة نوح عليه السلام وعلى منهاجه حين جاء ربه عز وجل بقلب سليم من الشرك، موحد لله تعالى، مخلصا العبادة لله تعالى وحده دون سواه. وقد تجلى القلب السليم من الشرك في أروع المواقف (٥)

---

(١) الآيتان ٨٣ و ٨٤

(٢) تفسير الطبري ٢٣/٤٤

(٣) تفسير الطبري ٢٣/٤٤

(٤) التفسير البسيط لقرآن الكريم ٢٣/١٥٩

(٥) التفسير البسيط لقرآن الكريم ٢٣/١٥٩ و ١٠٤

(ج) دلالة جملة: "جاء" على التقريب المكاني والتفسيري

إن النموذج المختار جاء في الآية الكريمة التاسعة والثلاثين من سورة النور المدنية الكريمة. وهذه الآية الكريمة تشتمل على المثل الثاني، الذي ضربه الله تعالى للكافرين المعاندين. قال تعالى(1): ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه. والله سريع الحساب﴾

إن هذا المثل الثاني الذي ضربه الله تعالى للكافرين المعاندين، جاء ضمن ثلاثة أمثال متتابعة في السورة الكريمة في الآيات الكريمات (٣٥ - ٤٠). إن المثل الأول السابق جاء في الآيات الكريمات من سورة النور ٣٥ - ٣٨. وإن هذا المثل الثاني نور إلهي ضربه الله تعالى للمؤمنين. وإن المثل الثالث جاء في الآية الكريمة الأخيرة بعينها. وإن هذا المثل ثالثي ضربه الله تعالى للكافرين المقلدين. وسيتبين لنا بفضل الله تعالى أن درسنا هذه السورة الكريمة في الجزء الثامن عشر من سلسلة التفسير البسيط للقرآن الكريم، كما درسنا هذه الأمثال الثلاثة (2)

---

(1) سورة النور ٣٩

(2) التفسير البسيط للقرآن الكريم ١٨/٧٥٠-١١١ و ٢٣٩-٢٦٦

وإننا باستعراضنا لسورة الكريمة تبيّنا أن السورة الكريمة، هي وسورة الأحزاب المدنية الكريمة، من السور الكريمة من القرآن الكريم التي عُنيت ببناء المجتمع الإسلامي على الأخلاق الكريمة التي عمل محمد صلى الله عليه وسلم.

ومما عُنيت به السورة الكريمة في صدرها حادثة الإفك التي تحتضن السورة الكريمة من عشر آيات كريمات (١) وبعد ذكر السورة الكريمة مجموعة من الأحكام والدروس، جاء فيها الآية الكريمة التي فيها الإشارة إلى ما أنزل الله تعالى من الآيات البيّنات، وإلى المثل واحد، وإلى الموعظة التي ينبغي أن يتعظ بها المؤمنون. قال تعالى (٢): ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين﴾

ويلفظ المثل في الآية الكريمة وفي آيات كريمات أخر معنىً خاصاً، إضافة إلى إفادة لفظ المثل من القرآن الكريم معنى القصة، ومعنى أخذ العبرة. وهذا المعنى الخاص مفاده أن لفظ المثل الذي جاء في الآية الكريمة يوحي إلى ما جاء في صدر سورة النور الكريم من حديث

---

(١) سورة النور ١١ - ٢٠
(٢) سورة النور ٣٤

في عشر آيات كريمات لبراءة حضرة السيدة عائشة الصديقة التي آذوها بما افتروا عليها، وهي التي آذوا بها المؤمنين فقد آذوا بإيذاء محمد صلى الله عليه وسلم في حياته بإيذاء أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، زوجه صلى الله عليه وسلم.

وإن مجيء لفظ المثل في الآية الكريمة بهذا المعنى الخاص يشبه مجيء لفظ المثل في آية أمثال في سورة النور على نحو ما بيناه. وإن آية الآية الكريمة التي تمثل النموذج المختار لتقرب المكانية والنفسية، هي الآية الكريمة التي تتحدث عن المثل الثالث الحضور لكافرين المعاندين فقال تعالى: والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب.

ومعنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم، والذين كفروا بالله تعالى، وجحدوا توحيده عز وجل، وكفروا بدين الإسلام، وبمحمد صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن الكريم الذي أوحاه الله تعالى إليه مثل أعمالهم (١) وصفتها (٢) كسراب، وهو الذي يجري

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١١٤ (٢) الجلالين

على وجه الأرض كأنه الماء، وهو يكون نصف النهار، بعد الزوال إلى صلاة العصر، يخفض كل شيء، حتى يصير الأرض لا شخص له، وتسمى سرابا - لأنه يترقرق سروبا، أي يجري جريا (١) وينسرب: أي يدخل في الشرب، بمعنى الطريق (٢) في مرآة العين، وكان السراب فيما لا حقيقة له، كالشراب فيما له حقيقة (٣) والآل ما كان كالماء بين السماء والأرض، وذلك يكون أول النهار، يرفع كل شيء ضحى (٤) إلى زوال الشمس، يرفع كل شيء حتى يصير الأرض شخصا (٥) إن أعمال الكافرين التي يظنون أنها حسنة وناجعة يوم القيامة، مثل السراب، بقيعة، جمع قاع، كالجيرة جمع جار، هو القاع: ما انبسط من الأرض واتسع، وفيه يكون السراب (٦) يحسبه الظمآن ماء، أي يظنه العطشان من الناس السراب ماء (٧) حتى إذا جاءه لم يجده شيئا: حتى إذا جاء الظمآن

---

(١) لسان العرب: "سرب"

(٢) لسان العرب: "سرب"

(٣) مفردات الراغب الأصفهاني: "سرب" ١/٢٠٢

(٤) تفسير الطبري ١٨/١١٤

(٥) لسان العرب: "سرب"

(٦) تفسير الطبري ١٨/١١٤

(٧) تفسير الطبري ١٨/١١٤